

# الأديب سالم جبران



## ثورية الوطن الضائع: قراءة في أشعار سالم جبران

هيفاء مجادلة

### 1. سالم جبران (1941-)

بين إخفاقات ونكبات شعبه وُلدت كلمته الشعريّة مدويّة في سماء شعراء فلسطين المقاومين، فاتّخذت أشعاره شكلاً من أشكال النضال والمقاومة والصمود. هو سالم يوسف جبران، الذي اتّخذ من الشّعْر منبراً أفرغ فيه مشاعره المتأجّجة. ولد عام 1941 في قرية البقيعة في الجليل الأعلى شمال فلسطين. تلقى دراسته الثانويّة في كفر ياسيف. اتّجه للعمل في ميدان الصحافة منذ عام 1962 واستمرّ فيه حتى عام 1992. تنقّل خلال هذه السّنوات بين مجالات عديدة، بدءاً برئاسة تحرير مجلة الجديد الأدبيّة، مروراً بالاتّحاد والغد رئيساً لتحريرهما، وانتهاءً بإنشائه وإدارته لمجلة الثقافة، ورياسة تحرير مجلة المستقبل الأدبيّة. رافق عمله في الصحافة دراسته في جامعة حيفا وتخرّج منها عام 1972. اتّجاهاته يساريّة، انضمّ إلى صفوف الحزب الشيوعي فكان عضواً فيه<sup>1</sup>، ولكن إثر صراعات عقائديّة وتنظيميّة ترك الحزب عام 1993. لقاؤه مع الشّعْر بدأ مبكراً جداً، حين كتب أول قصيدة له في الصّف الثامن الابتدائي<sup>2</sup>. طرق في أشعاره مواضيع شتى، فكتب في الطّبيعة، الغزل والمرأة. كتب شعراً اجتماعياً وإنسانياً، وشكّلت الوطنيّة مجالاً خصباً من مجالات كتاباته، فخصّص معظم شعره في تناول مأساة الشّعب الفلسطيني وصور معاناته؛ كما نالت القضايا العالميّة حصّة من اهتماماته. كتابته الحقيقيّة بدأت وهو على مقاعد الدّراسة الثانويّة عام 1956، إذ عايش أجواء الوطنيّة وتفاعل مع مدّ الحركات الثوريّة العربيّة.

اتّسمت خطواته الأولى في عالم الشّعْر بطابع من الرومانسيّة، فكتب شعراً تغزوه ملامح القلق والبحث عن الذات. لم يطل بقاءه في تيار الرومانسيّة، وسرعان ما انتقل إلى مسارٍ واقعيّ ثوريّ، تأثراً بإنتاج الشعراء العالميّين التقدّميّين والشعر الثوري العربي في تلك الفترة، الذي حقّزه على

<sup>1</sup> انتماءه إلى الشيوعية كان إيماناً منه بأنها أعلى مراحل الوطنيّة والإخلاص للشعب، انظر: الكحال، شاعر.

لقاء مع الشاعر سالم جبران. الجديد، ع (10-11)، 1975، 86.

<sup>2</sup> رياض كامل، حوارات أدبيّة (وزارة المعارف والثّقافة: دائرة الثّقافة العربيّة، 1994)، 93.

خلق أشكال شعريّة تتفاعل إنسانياً وثورياً مع المجتمع الذي يعيش فيه، وجعله يبحث عن شكل شعريّ أكثر تجاوباً مع الواقع.

يُعتبر جبران من أصحاب الفوج الثاني من الشعراء في فلسطين<sup>3</sup>، ويمكن القول بأن تجربته الذاتية المعيشة هي المنبع الأساسي الذي يغترف شعريّته، فمعاناته التي عاشها في ظلّ الاحتلال ولدت الكثير من قصائده؛ لذا كثيراً ما نلمس في دواوينه خطاباً مباشراً يوجّهه الشاعر إلى القارئ الفلسطيني خاصة والعربي عامة، يحدّثه فيه عن الثورة، الوطن، الاحتلال، المعاناة، القمع وغيرها من المحاور التي عليها دار شعره. لذا لم يكن غريباً أن اتّسم شعره بالثوريّة وانطبع بالواقعيّة الاشتراكيّة. وقد دفعه تفاعله مع القضية الفلسطينية، وما رآه بعد النكبة إلى ممارسة الكتابة ملتزماً، فحمل شعره طابع الالتزام<sup>4</sup>. كان من بين أولئك الذين سيقوا إلى السّجن في مطلع حزيران 1967، وحين أطلق سراحه "تنبه" الحاكم العسكري بأوامر تحديد إقامته والإقامة الجبريّة<sup>5</sup>.

---

<sup>3</sup> وفق تقسيم حبيب قهوجي. وأصحاب الفوج الثاني هم الشعراء الذين بدأت بواكيرهم الأدبية تشقّ طريقها في أوائل الستينات، ممّن تتلمذوا في عهد الاحتلال الإسرائيلي، وتأثروا بروح المهرجانات الشعرية التي كانت تقيمها "رابطة الشعراء". انظر: حبيب قهوجي، العرب في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي (بيروت: منظّمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، 1972)، 300-301.

<sup>4</sup> يصرّح جبران أنه يعتزّ بكونه ملتزماً بقضية لشعب، بقضية التغيير الثوري للعالم، ويرى أن التزامه الثوري هو بالضرورة التزام إنساني. انظر: شاكر الكحلّ، لقاء مع الشاعر سالم جبران. الجديد، ع(10-11)، 1975، 86. حول الالتزام في الأدب العربي الحديث انظر: سعدي أبو شاور، تطوّر الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر (بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 2003)، 259-271؛ أحمد أبو حاقّة، الالتزام في الشعر العربي (بيروت: دار العلم للملايين، 1979)، 12-49؛ رؤوبين سنير، ركعتان في العشق: دراسة في شعر عبد الوهاب البياتي (بيروت: دار السّاق، 2002)، 5-15.

Salma Jayyusi, *Trends and movements in modern Arabic poetry* (Leiden: Brill, 1977), 574-583.

<sup>5</sup> غسان كنفاني، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966 (بيروت: دار الآداب، 1966)، 99-100.

اضطلع الشاعرون بدور كبير في إثراء الحركة الثقافية والأدبية الحديثة من خلال أشعاره، وكذلك من خلال عشرات المقالات السياسية والأدبية، في مجلات وصحف عديدة مثل: صحيفة الرأي الأردنية، النّهار اللبنانيّة، الطريق الفلسطينيّة. تُرجمت الكثير من قصائده إلى لغات عديدة كالعبريّة والفرنسيّة والروسيّة والإنجليزيّة.

أصدر جبران ثلاثة دواوين شعريّة: كلمات من القلب (1971)، قصائد ليست محدّدة الإقامة (1972)، رفاق الشّمس (1975). وهناك قصائد نُشرت في ديوان الوطن المحتل ولم تُجمع في ديوان واحد.<sup>6</sup>

## 2. المضامين الشعريّة لدى جبران:

### 2.1 بواكير الكتابة: رومانسيّة قلقة تبحث عن وضوح:

في بداياته الشعريّة كتب جبران شعراً رومانسيّاً يمتزج بالكثير من القلق الذي يبحث عن وضوح. ويعزى هذا إلى تأثره بأشعار عبد المعطي حجازي والبياتي والملائكة والسيّاب وعبد الصبور، حيث كان يتلّف لقراءة ما تنقله صفحات الجديد والغد من أشعارهم الرومانسيّة.<sup>7</sup> ضمن عالمه الشعريّ الرومانسي، يصرّو الشاعر سعادته بلقاء المحبوبة، لدرجة أنه فقد القدرة على التعبير من شدّة الموقف وفرحة اللقاء، وأمام عيونها لم يعد يقوى على الكلام. يقول في اعترافه:

أحلمُ أن تملكَ وجداني وفكري امرأةً/ أحبُّها بلا حدودٍ [...] / وها أنا أمام عينيكِ العزيزتين / لا أعرفُ ما أقولُ.<sup>8</sup>

<sup>6</sup> انظر: يوسف الخطيب، ديوان الوطن المحتلّ (دمشق: دار فلسطين، 1968)، 533-548.

<sup>7</sup> شاكر الكخال، 85. يرى السّوافيري أن معظم الشعراء الفلسطينيين قد اتّجهوا إلى الكتابة الرومانسية بعد وقوع كارثة فلسطين سنة 1948، وظهرت بذور هذا الاتجاه عند إبراهيم طوقان في شعره الوجداني الغزلي وفي تصوير عاطفة حبّه، كما ظهر بشكل أقوى عند عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) وفدوى طوقان. للاستزادة انظر: كامل السّوافيري، الاتّجاهات الفنيّة في الشّعر الفلسطيني (القاهرة: مكتبة الانجلو المصريّة، 1973)، 220.

<sup>8</sup> سالم جبران، قصائد ليست محدّدة الإقامة (بيروت: منشورات دار الآداب، 1970)، 25.

ثم يُظهر لوعته وحرقة بفرار من يحب، ويصوّر عذاب نفسه وهو بعيد عن المحبوبة لا يلتقيها سوى في أحلامه:

وأنت بعيدة عني / أشمُّ مخدّتي وأبوسها / وأضيقُ في الأحلام / مع العطرِ الذي أبقيتِ /  
لستُ أنام / كيف أنام؟<sup>9</sup>

يتقاطع الغزل عند جبران وهو يلتقي بوصف الطبيعة، فبين زخّات المطر وحفيف أوراق الشجر، تعلق رومانسيّة جبران وهو يعبر لمحبوبته عن مدى عشقه لها، كيف لا وهي -بقرها منه- تنسيه هموم الحياة ومآسها! يقول معبراً عن ذلك:

أغاني المطر / على سقف بيتي / وصوت اهتزاز فروع الشجر / وراء الجدار، وأتات  
تختي [...] / أحبُّكِ أجمل حبٍ / ولو كنتِ عندي / نسيتُ هموم الحياة!<sup>10</sup>

في غزله، وصف الشاعر حبيبته وصفًا حسيًّا، فيتنقل بين شفيتها وعينها في قصيدة حبّ يعلن فيها أنه لن يصفها لرفاقه الذين يرغبون بمعرفة صفاتها، لأنه يجدها أعزّ من الشّعْر شأنًا. يصرح بأنه لا يحبّها ليعلو في سلالم المجد ولا رغبةً في تطريز قصيدة جديدة، بل يحبّها لأنها:

أحبّكِ امرأة .. شفتاكِ حديقة وردٍ وجرة شهيد  
أحبّكِ امرأة .. مقلّتكِ نجما حنانٍ وسعدٍ  
وان طاردتني همومُ الحياة حديثكٍ سلوأي ساعة شهدي<sup>11</sup>

تتجلّى القوّة الشعريّة لجبران، حين يعمد إلى المزج بين شعره الوجداني ونزعتة الوطنيّة، فيمزج بطريقة تنمّ عن وعي واضح بين الرومانسيّة الذاتيّة المتمثّلة بالحبّ الفردي والعواطف

<sup>9</sup> ن.م.، 20.

<sup>10</sup> سالم جبران، رفاق الشّمس (النّصرة: دار الحرّيّة للطباعة والنّشر، 1975)، 58-59. وفي قصيدة أخرى يقول: رأيتُ عينيكِ/ وكانت غابة الصّفصاف/ من حولنا كالحمّ/ والغصونُ والطّيورُ والسّماءُ/ تسبحُ في الضّفاف/ عيناكِ مينائي. انظر: ن.م.، 40-41.

<sup>11</sup> سالم جبران، كلمات من القلب (عكا: مطبعة دار القبس العربي، د.ت.). 32. يظهر غزله الحسي في نفس الديوان في قصائد أخرى نحو: أغنية، 98؛ ألف عام، 29.

الشخصية، والرومانسية الجمعية المتمثلة بحب الوطن. ففي قصيدته أراك وأبكي تظهر جدلية الصراع بين المحبوبة والوطن؛ يقول فيها:

أراك وأبكي / لأني غداً لن أراك [...] / أحب! ومن كل قلبي / ولكن ينادي تراب بلادي /  
وساح العراك / واني التزام لحب المتاريس قبلك / قبل الهوى يا ملاكي<sup>12</sup>

تراب الوطن يستصرخ وينادي الشاعر، فتتقرّم صورة الحبيبة بجواره. تستمرّ هذه الجدلية بين الحبيبة والوطن، وترجع الكفة لصالح الوطن في حال اصطراعهما، فتصهر الحبيبة في شعر الوطن وتغيب بشكل مطلق بجانبه، إذ يقرّر الشاعر- وبحسم- أنه لا وقت للغزل. يخاطب حبيبته بلهجة حادة معاتبة:

لحم أبي وأمي/ وإخوتي / في النار / وأنت تطلبين / أن أكتب في جمالك الأشعار<sup>13</sup>

## 2.2 العزف على وتر الأرض والوطن:

جاءت النكبة عام 1948 فخلفت معها تداعيات وأحداثا حفرت في نفسية الفلسطينيين ندوباً عميقة. تشرّد الشعب، منهم من بقي يعاني الممارسات القمعية، ومنهم من نزح إلى الشتات ولوعة الفراق ترافقه. سالم جبران أحد هؤلاء الذين كانوا شاهدين على ما حلّ بالشعب الفلسطيني من معاناة، فقد عايش المأساة التي اقتلعت أكثرية الشعب الفلسطيني من وطنه، وعلقت مشاهد قوافل اللاجئين الفلسطينيين وهي تنزح من الوطن إلى المجهول خارجه في ذاكرته؛ وكلّ ذلك ترك بصماته واضحة على أشعاره. ورد في أحد أعداد مجلة الجديد: "إنّ حبّ الأرض- حبّ الوطن - هو الموحى لشعرائنا بهذه القصائد، وكفاح قرويينا للمحافظة على أرض الآباء والأجداد هو ما أثارهم. لقد أثار الاضطهاد القومي كرامتهم، التي هي من كرامة شعبيهم [...]، أثار آلامهم وآمالهم، فعبروا بصدق وإخلاص عن كلّ ذلك"<sup>14</sup>.

<sup>12</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 46-47.

<sup>13</sup> ن.م، 41.

<sup>14</sup> الجديد، ع 7، (1957)، 7.

تلخّص هذه الفِقرة دائرة المضامين الشعريّة التي تحرّك الشعراء الفلسطينيين في فضائها في تلك الفترة، ومن بينهم جبران، وتتلخّص بكلمة واحدة هي الحبّ: حبّ الأرض والوطن. نظرُتنا الممعنة إلى أشعار جبران تفضي إلى أنها نبعّت من هذه المعادلة، معادلة حبّ الوطن، ولعلّ أجمل قصيدة تُبرز هذا الحبّ قوله في قصيدته حبّ:

كما تحبّ الأم / طفلها المشوّها / أحبّها / حبيبتي بلادي!<sup>15</sup>

بكلمات قليلة يجسّد الشاعر حبًّا عظيمًا لبلاده، شَبّهه بحبّ الأم لوليدها المشوّه. هذا الحبّ الجارف لوطنه، حدا به لأن يوصي شعبه بأن يدفنه - عندما يموت - خارج الأرض لا داخلها كي يعانق التربة، يقول في قصيدة "حنين إلى القرية":

يا إخوتي إن متُّ / مُدُوني على الأرض / بلا قبرٍ ولا لحدٍ / وخلّوني شهيدًا / في عناق  
التربة الشّهيدة<sup>16</sup>

دارت مضامين أشعار جبران حول محاور أساسيّة أبرزها: المحور الوطني، تمثّل بإظهار حبّه لوطنه ودعوته إلى الصّمود والتشبّث بالأرض، وحرصه على إيقاظ الحسّ الوطني عند الشّعب وبثّ روح المقاومة فيه؛ المحور القومي والأُممي أبرزَ فيهما انتماءه إلى الأُمّة العربيّة من خلال تناوله للقضايا والأحداث العربيّة وإلى القضايا الأُمميّة عامّة؛ والمحور الإنساني/الاجتماعي الذي نبع من انتماءاته الماركسيّة، وتمظهر في طرحه لهُموم وقضايا العمّال والطبقات الكادحة، وإظهار دعمه وولائه لها، ومن خلال إبرازه لقدسيّة الكفاح والنّضال وتكاتف طبقات المجتمع في سبيل الانتصار في معركة البقاء.

في طرحه لهذه المحاور، ينطلق جبران من إيمان مطلق بقوّة الكلمة فهي أقوى أسلحة الدفاع الفعّالة في معركة الفلسطيني، ولها دور كبير في تأجيج مشاعر الفلسطينيين وشحنهم وحثّهم إلى المقاومة<sup>17</sup>: لذا كثيرًا ما نجده يصرّ على استنفار صوته كقوّة تحريك دافعة، وكأنّه

<sup>15</sup> كلمات من القلب، 102.

<sup>16</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 6.

<sup>17</sup> في هذا السّياق يقول سالم جبران في إحدى المقابلات: "كانت صحافة حزينا الشّيعي تعمق فينا وفي جماهيرنا ضرورة أن يكون الشعر خبزًا وطرًا وسلاحًا في نفس الوقت". انظر: شاكر الكخّال، 85.



يشير بذلك إلى ضرورة التزام الشاعر بقضية وطنه المحتل، وتكريسه شعره لهذه المهمة. يقول متحدياً:

يا وطني، إن سجنوا لي خُطوتي / وغَيَّبوا عني طلوعَ الفجرِ في الجليل [...] / فلن تشلَّ  
خطوتي / وسوف يعلو الصوت<sup>18</sup>

فكلّ الممارسات القمعية والتهديدات لن تعمل على شلّ حركة الشاعر ولا كتّم صوته، سيظلّ يصدح بالغناء، فهو مغني الثورة:

وإذا مُتُّ في المعركة / فالأغاني / سوف تحتلّ، بين الرفاق، مكاني / وتحارب عني<sup>19</sup>

لم يعد صوته وغناؤه مجرد كلمات، بل تجسّمت وصارت تنوب عن الشاعر في حالة فنائه وتحارب بدلاً منه. وفي هذا إشارة من الشاعر إلى مدى قوة الكلمة وشدّة وقعها وتأثيرها.

2.2.1 فيما يتعلّق بالمحور الوطني في أشعار جبران، لعلّ أول ما يطالعنا من شعر أبرّز وطنيته بوضوح، تلك القصيدة التي افتتح بها ديوانه كلمات من القلب وأطلق عليها عنوان (1948)، نظمها وهو يواكب الأحداث القاسية التي ألمّت به وبشعبه، يقول:

كان ليلى النكبة الأسود لا إشعاع فيه/ غير إشعاع القنابل/ وهي تنصبّ على رأس قرى/  
ليست تقاتل! / ولماذا يا بلادي؟ / قالت الأعين، في رعب / ولم تفهم تفاصيل القضية<sup>20</sup>.

يختزل جبران من خلال المقطع السابق نكبة 1948، ويظهر عدم فهم الشعب الفلسطيني لتفاصيل المؤامرة التي حيكت خيوطها على يد المستعمرين والرجعية العربية في حينه<sup>21</sup>. وفي

<sup>18</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 19.

<sup>19</sup> رفاق الشّمس، ص 26. في موقع آخر نجد أن جبران يصرخ في وجه العدو، أن في وسعه فعل الكثير، غير أنه لن يستطيع أن يخنق لحنه وحبّه للأرض، قائلاً في قصيدة بشير الريح والمطر: يمكنكم أن تغلقوا الشجر/ من جبل في قريتي/ يمكنكم أن تحترثوا كل بيوت قريتي/ فلا يظلّ بعدها الأثر/ لكنكم لن تخنقوا لحن/ لأنني عاشق للأرض/ مغنيّ الرياح والمطر (قصائد ليست محدّدة الإقامة، 9).

<sup>20</sup> كلمات من القلب، 5.

<sup>21</sup> حبيب بولس، مقالات في الأدب العربي الفلسطيني الحديث: الرحلة الأولى (الناصر: المطبعة الشعبية، 1986)، 82.

نمط حكائي مطعم بحوار تتخلّله تساؤلات أضفت حركيّة على القصيدة، ينقلنا الشاعر إلى أجواء مشوبة بالقلق والاضطراب، أجواء الظلام الدّامس الذي ينيره بريق القنابل، وحيث العيون الفزعة تنقل بصرها من مكان إلى آخر غير واعية لما يحدث حولها، تتساءل عن سبب الرّحيل القسري.

يصوّر جبران في العديد من قصائده وسائل القمع الإسرائيلي وما ألمّ بالفلسطيني من تشريد ونفي، وتعذيب نفسيّ وجسديّ، وسلب ونسف للبيوت وغيرها من ملامح المأساة التي يعاني منها، من ذلك وصفه:

أنا ابن فلسطين / أذبح في كلّ عام / وفي كلّ يوم / وفي كلّ ساعة / تعال تأمل صنوف  
البشاعة / مناظرشّيّ / وأهونها أن دمي يسيل<sup>22</sup>.

تختزل هذه اللقطة الشعريّة القصيرة مأساة شعب بأكمله<sup>23</sup>، لدرجة أن "المأساة تصوير خبزاً يومياً"<sup>24</sup>. يعيش الفلسطيني حياة صار فيها التراب رغيّف الخبز، والدود أضحي ماءً، ليالیه ظلماء لا ضوء فيها، يصف ذلك بقوله:

الماء دودٌ / والرّغيّف من تُرابٍ / وليالي شرقنا / دُجّي بلا أقمار<sup>25</sup>!

---

<sup>22</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 44-45.

<sup>23</sup> هذه الملامح المأسويّة المُختزلة في بضع كلمات تظهر في كثير من أشعاره، من ذلك: وهذه بلادي/ خرائب قامت على أنقاضها قصور/ حقول أهلي كلّها قبوز/ ودور أهلي كلّها قبوز/ وكلّ أهلي -كلّهم- هناك لاجئون/ في اللّيل، في الوحول يغرقون. انظر: كلمات من القلب، 11. وفي موقع آخر يقول: تتحدّثون عن السّلام/ وأنا هنا، غصنٌ بلا جدار/ وسقف في الهواء الرّحب قام/ جيل أنا، ينمو ويكثر في الخيام/ ولتسمعوها جيّداً/ ينمو ويكثر في الخيام. ن.م، 43. يتكرّر ظهور هذه اللقطات في: قصائد ليست محدّدة الإقامة، 62، 72، 76؛ وفي: رفاق الشّمس، 37، 54، 62.

<sup>24</sup> هذه العبارة عنوان لإحدى قصائد الشّاعر، والتي بها يلخّص الأخبار التي تملأ الصحف اليوميّة، أخبار حافلة بالدمار، الدماء والموت. انظر: كلمات من القلب، 67.

<sup>25</sup> رفاق الشّمس، 53. يعدّد الشاعر في إحدى قصائده أنواع المعاناة التي ذاقها على جلده: عرفتُ المنافي/ عرفتُ السّجون/ عرفتُ الضّياع الذي صار أسطورة للعذاب/ عرفتُ الخيام/ عرفتُ حياة إذا عرفتها/ ستعرف منها المنون (قصائد ليست محدّدة الإقامة، 60-61).

مشاهد وحشيّة كثيرة استفزّت الشاعر، منها تلك اللقطات التي حملت معها الذبح الجماعي وإراقة الدماء، فعبر عمّا يراه من أعمال وحشيّة، جعلت من لحوم الأمّهات أكوامًا متناثرة وأراقت الدماء على الأرض، وصوّر فزع الأطفال ورعهم، ينقلون بصرهم بين الأشلاء المبعثرة. يقول في قصيدته القرية المذبوحة:

دُمّ...دُمّ...دُمّ... / كأنّ الأرض لا تُنبِتُ أعشابًا / بلا دماء / اللّحم فوق اللّحم، والدّمّار /  
يزيد جوع الوحش للدّمّار/ والصّغار / يمشون مرعوبين بين النّار والغبار<sup>26</sup>.

ضمن الإجراءات التعسفيّة التي ذاقها الشعب الفلسطيني هدم بيته بلا مبرر، يصوّر جبران في قصيدة المعركة كيف يحتجز صاحب البيت وهو يشاهد عمليّة هدم منزله:

غيم الغبار في الفضاء.. والشررُ / ويوسف محتجز / بين الجنود، تستبيحه الذّكْرُ /  
أنا..أنا بنيتهُ / بعثُ لكي أقيمه الماعزَ والبقر/ أحجّاره..أنا بنفسي، كلّها قطعتمها / حجّر..  
حجر!<sup>27</sup>

ثم يصوّر الجنود وهم يُقدمون على تفجير البيت، فيختفي في لحظات عن الوجود، يعودون أدراجهم فرحين بهذا النصر، ويبقى أهل البيت في العراء يلتحفون السماء ويفترشون الأرض متحسرين على وضعهم:

يا ناس، يا إله! / هل يُهدم في هنيئة / كأنه زجاجة.. / أو بيضة فتتكسر؟! / نُقذت  
الخطّة، والعسكرُ عادَ مسرعًا / وهو يغني أغنيات المجد والظّفَر / ويوسف / يكفكف  
الدّموعَ من عيني وحيدهِ عُمَر [..] / وهو يكادُ من أساه ينفجر<sup>28</sup>!

ينقل جبران أحد مظاهر التمييز العنصري الواضح الذي يمارسه المحتل، حين رأى لعبة للأطفال تُعرض في الأسواق، وعند الضغط على أزرارها يتدلّى منها إنسان عربي مشنوق يتأرجح في حبل الإعدام، من أجل غرس روح الحقد والكراهة في نفوس أطفال اليهود تجاه العرب:

<sup>26</sup> رفاق الشّمس، 62.

<sup>27</sup> كلمات من القلب، 14.

<sup>28</sup> ن.م، 14-15.

إنسان مشنوق / أحلى لعبة / أحلى ملهاة للأولاد / تُعرض في السوق [...] / يا أرواح

الموتى/ في معتقلاتِ النازيين / الإنسان المشنوق / ليس يهوديًا في برلين<sup>29</sup>.

يسجّل الشاعر في قصيدته أعلاه احتجاجه الإنساني الصارخ في مواجهة المجتمع العرقي البغيض الذي آلت إليه السّلطة في فلسطين<sup>30</sup>. ويأخذ يوسف الخطيب على الأدباء التقدّميين استحضارهم مأساة اليهودي في برلين عند تناولهم لمأساة العربي في فلسطين. ويرى أن احتجاج جبران في قصيدته السابقة جاء مشفوعًا بالتوسّل بأرواح الموتى في معتقلات النازيين، كأنما يستمدّ القوّة لقصيدته الخاصّة ن خلال قضية ملايين الضّحايا اليهود الذين سحقهم الحرب العالميّة الثانية<sup>31</sup>. لا يغفل جبران بابًا يتعلّق بالنكبة إلا ويطرّقه، وكما استنفرت مجزرة كفر قاسم أقلام العديد من الشّعراء والأدباء، فقد استنفرت جبران ليرسم بريشته لوحة ناطقة بجريمة دامية وحشيّة لقرية كانت آمنة:

الدم لم يجفّ، والصرخة لا تزال / تمزّق الضمير. والقبور / مفتوحة، في فمها أكثر من

سؤال/ ولم يزل مدخل كفر قاسم / مروّعًا من هول تلك الليلة السّوداء<sup>32</sup>.

جعل الشاعر من ضحايا المجزرة البشعة إشارة إلى عمق المأساة، ورغم أنه لم يفرق في وصف تفاصيل المجزرة، كيف وأين ومتى وقعت، إلا أن كلماته القليلة تعبّر عن غضب عارم، ويرى مواسي أن الشاعر في الأبيات السابقة "يرى في هذا الواقع ديمومة صارخة، ديمومة تبحث عن التساؤل بقدر ما تبث من ارتياح. وهذا الوصف الحكائي مكثف بشاعرية، فيها الكثير من التخيل الشعري أو الفانتازيا"<sup>33</sup>. وقد استغل الشّاعر مناسبة القصيدة ليحرّض على عدوّه ولينبّه شعبه إلى أن الخطر لا يزال قائمًا. يقول:

<sup>29</sup> ن.م.، 46.

<sup>30</sup> ديوان الوطن المحتلّ، 28-29.

<sup>31</sup> ن.م.، 29.

<sup>32</sup> كلمات من القلب، 16.

<sup>33</sup> فاروق مواسي، مرايا في النّقد-دراسات في الأدب الفلسطيني. "شاهد على حصاد الجماجم-شعر كفر

قاسم". (بيت بيرل: مركز دراسات الأدب العربي، 2000)، 48.

يا أمة أحميها تنبهي / فلا تزال الحية الرقطاء / عطشى إلى الدماء<sup>34</sup>

في قصيدته أعلاه والتي عنونها بكفر قاسم، يرسم الشاعر المشهد المأساوي للمجزرة، عبر اتكائه على مجموعة من الصور الاستعارية (نحو: القبور مفتوحة، في فمها أكثر من سؤال، الجزار يسحب حقل الأرض، الحية الرقطاء عطشى إلى الدماء) التي زادت حدة المأساوية، كما أضفت طابعاً شاعرياً على أجواء القصيدة.

ضمن تطرقه لمواضيع تتعلق بالنكبة وما آلت إليه، وصف حالة المرض والفقر المدقع التي أصابت الشعب الفلسطيني:

مريضة أتي بلا دواء / تبكي وتبكي وحدها العمر [...] / يا إخوتي الصغار [...] / عيونكم  
المحها تاكلني / تريد شيئاً..دميةً تريد؟ برتقال؟! / تريد أن أبرّ بالوعد، وأن آتيكم /  
عشيّة العيد.. مع الحذاء<sup>35</sup>!!

تجسد الأبيات السابقة مدى معاناة الأم المريضة التي لا تجد ثمن الدواء، عدوى الفقر تنتقل إلى الأولاد الذين لا يعثرون على من يهدي إليهم لعبة أو فاكهة أو حلوى.  
عاش الفلسطيني الغربية بكل أبعادها وأشكالها، غربة نفسية وجسدية، عانى ويلاتها من غادرها مُكرهاً، ولم يسلم من طعم مرارتها من بقي في أرض فلسطين، فعاش غريباً وهو في وطنه! في الحالتين، تمزق الفلسطيني بين خيارين أحلاهما مرّ: إما البقاء في أرض الوطن المغتصب وتدوّق مرارة الاحتلال، وإما الهروب من الواقع ومفارقة الوطن مع الشعور بالأم العذاب النفسي. عن هذين الموقفين عبّر جبران في أشعاره بتوجّع وتفجّع. عن ذلك الذي يشعر بالغربة رغم بقائه في وطنه، عبّر جبران في قصيدة تحدّث فيها عن مدينة صفا التي زارها بعد النكبة، فوجدها خاوية لا عرب فيها، فقال:

غريبٌ أنا يا صفاً/ وأنتِ غريبة / تقول البيوت: هلا / ويأمرني ساكنوها ابتعد!<sup>36</sup>

<sup>34</sup> كلمات من القلب، 16.

<sup>35</sup> كلمات من القلب، 17.

<sup>36</sup> ن.م.، 44. تبرز المفارقة الصارخة في خاتمة هذه القصيدة وقصيدة أخرى عنوانها عين حوض، وفيها يصف أن الأرض لا تزال على حالها، الزيتون ينتظر قاطفيه، لافتة الترحيب لم تغادر موقعها من فوق باب البيت

وأما من نزح هاجراً وطنه وبلاده، فكان الحنين يُلهبُ قلبه إلى أهله. في قصيدة لاجئ يعبر جبران  
المغترب عن مرارته وهو بعيد عن وطنه وأهله وأطفاله<sup>37</sup>:

تعبُرُ الشَّمْسُ الحدودُ / دون أن يطلقَ في جبهتها النَّارَ الجنودُ / ويغني بلبُّ الدوحِ،  
ضغَى، في طولِ كرمٍ / ومساءً يتعسَّى وينامُ / بسلامٍ / مع أطيَّارٍ "كيبوتسات" اليهودِ /  
وحمار ضائعٍ يرعى بخطَّ النَّارِ / يرعى في أمانٍ / وأنا، إنسانُك اللاجئُ، يا أرضَ بلادي /  
بين عيني وأفاقِكِ / أسوارِ الحدودِ<sup>38</sup>.

نحسّ بمدى وجع الشاعر وهو يقارن وضعه مع وضع المهائم والطيور التي لا تعوقها أي حدود؛  
إنها تغني، تتحرك، ترعى، تأكل وتنام بسلام وأمان، دون أن يعكّر صفوها أسوار وجدران. أما  
جبران فيحاول اختراق هذه الحدود ولو بالخيال والكلمة المعبرة عن الشوق واللهفة. وتراءى  
صور الوطن بحواكيره وحرارته وأشجاره وصبيانته أمام جبران فيناجيهما ملتاغاً، وعبر المنفى يظهر  
لوحة قلبه المتلظية شوقاً إلى الأهل والأصحاب، وفي أغنية للبلد يطلق وعده بالرجوع إلى وطنه  
قائلاً:

سريعاً سوف أتاكم، رفاقي / مثلما يركض للعين / قطيعُ الماعز العطشان! / سريعاً  
سوف آتي البيت يا أمي<sup>39</sup>.

من خلال التماذج أعلاه، يُلاحظ أن قصائده التي وُلدت في المنفى قد نضجت بمشاعر الحنين  
إلى أرض الوطن، والشوق إلى الأهل، وحملت طابع الثورة والأمل.

---

مرحبة بالضيوف، "جميع ما كان كما كان"، سوى تغيير بسيط – على حدّ تعبير الشاعر- هو موت "أبو محمود"  
في المنفى، وإقامة "بن نتان" الرسام اليهودي في بيته! بينما في القصيدة الأولى يصف الشاعر شعوره بالغيرة رغم  
وجوده في أرض الوطن! البيوت ترحب به، ولكن من استوطنها يطرده من وطنه! وبذا، تبرز المفارقة: البيوت  
بقيت والأهل شردوا، البيوت ترحب به والأهل يطردونه.

<sup>37</sup> تبرز اللوعة والتفجع من السفر وهجر المكان من خلال تساؤلات يطرحها الصغار: ولماذا يا أبي؟ / أتري لبنان  
حلوك بلادي؟ / أتري فيه حواكير جميلة/ بينها ترتاح أحلامُ الطفولة؟ انظر: كلمات من القلب، 5-6.

<sup>38</sup> كلمات من القلب، 45.

<sup>39</sup> ن.م.، 96.

يعمد الشاعر إلى فضح سياسة الاستعمار، وإزالة القشرة التي تغطّي ممارساتهم معرّيًا أساليبهم، ويعلن عدم رضوخه لمحاولاتهم ضمّه إلى صفوفهم ليكون عينًا لهم:

سجّل اسمي في القائمة السوداء / سجّل اسم أبي، أمي، إخواني [...] / سجّل اسمي.. /  
فأنا لن أتنازل / عن أرضي الطيّبة المعطاء / لن أعمل جاسوسًا / للأجهزة السوداء<sup>40</sup>.

نلمس الحزم في رفضه للعمالة، وكأنه برفضه الحاسم يحثّ كل فلسطيني على الرفض. يتجلّى هذا الرفض للعمالة في قصيدة يخاطب بها – بحدّة- الرجل الذي باع ضميره فخان وطنه:

أجوع ألف مرّة / أموت ألف مرّة / في دربنا الموصل للمجرّة / أموت يا هذا، ولا أسير /  
في دربك الحقيّر / يا خرب الضمير<sup>41</sup>

حالة الكبت والطغيان التي عاشها الفلسطيني بعد النكبة، خلقت عنده روح التمرد والثورة، وقد تأجّجت هذه الروح مع تأجّج الممارسات القمعية وتفاقمها، ومع الإصرار على خنق الحريّات وفرض الموت البطيء عليهم. لذا، استثمر جبران قلمه ليصوّر من خلال أشعاره صمود الفلسطيني وتشبّثه بأرضه ومواصلته للنضال والتضحية رغم كلّ وسائل التهيب التي لاقاها، والتي لم تنجح في إخماد شعلة المقاومة لدى الشعب الفلسطيني، يقول:

تشتعل المقاومة / في كل شبرٍ / يُعلن الإصرار / إصراره أن تبصق العدوان كل دار /  
شعبي أنا أعرفه / إن أظلمتُ / ينسجُ من دماثة أنهار<sup>42</sup>.

لقد أدرك جبران أن ترك الفلسطيني لأرضه ونزوحه منها هو ما يستهدفه العدو وما يرمي إليه، فسخر شعره من أجل الحثّ على البقاء في الوطن مهما اشتدّت الظروف، في قصيدته يا تراب الجليل يطلق الشاعر وعده باسم شعبه بأن يبقى متشبّثًا بكل شبر من أرضه، وسيحمل راية الصمود الأبناء والأحفاد الذين سيرثون حب الوطن:

أيها الموت! إنّ شعبي هنا باقٍ      بقاء الجبال ليس يميّد!

<sup>40</sup> كلمات من القلب، 55.

<sup>41</sup> قصائد ليست محددة الإقامة، 55.

<sup>42</sup> قصائد ليست محددة الإقامة، 22.

يا تراب الجليل يا مسك أجدادي  
عزيم ما أورتئنا الجدود  
نحن في عمقك المقدس جذر  
ليس تنسيه نكبة أو عهد  
لن نملّ لبقاء حتى ولو في القيد  
نبقى وسوف تفتنى القيود!  
كلُّ طفلٍ يجيء عهدُ بقاء  
وصمود، فهل يهلي يا عهد<sup>43</sup>

عبارات التحدي في الأبيات السابقة تنبئ عن جرأة وقوة يتمتع بها الشاعر فهو مباشر في توجيهه، متحدي في موقفه. في قصيدة تحمل عنوان بقاء يدعو جبران شعبه إلى البقاء في أرض الوطن، ينادي بأن يهبوا جميعا إلى غرس الخناجر في الأرض لتكون مقبرة لأحلام العدو:

الأرض خناجرُ / تحت الأقدام الوحشية / والأرض مقابرُ / للأحلام الهمجية<sup>44</sup>

إن بقاء الفلسطيني وفق الأبيات السابقة هو شكل من أشكال الصّراع، ورغم كلّ المعاناة والعذاب، يعلن الشاعر بقاءه في أرضه وتشبثه بها، حتى لو سكن في مغارة أو كوخ:

سأظلّ هنا / في بيت يبني من أحجارٍ / في كوخ مصنوع / من أغصان الأشجارُ / أو في إحدى مغر بلادي / يا جزّار<sup>45</sup>.

بقاؤه هذا وتشبثه بالأرض وصموده مقرون بتفاؤل يملأ قلبه، فهو يحاول أن يغرّس بذور الأمل في نفوس الشعب. نلمح هذا التمازج بين الإصرار والأمل في قوله:

<sup>43</sup> رفاق الشّمس، 85-86.

<sup>44</sup> كلمات من القلب، 10.

<sup>45</sup> كلمات من القلب، 10. وبلهجة ملؤها التحدي والثقة يقول: وطني ملكي/ أبقاه لي أجدادي/ وسأبقى للأبناء/ حرّ فيه أنا.. أتجوّل كيف أشاء (كلمات ليست محددة الإقامة، 56). ويقول: فلتعلم الجبال أن نائراً جديداً / آتٍ/ لكي يسهم في تحرير أرض الشّمس/ أو يهرق في محرابها أنفاسه (ن.م،، 31). وفي قصيدة أخرى يقول: لأجل شعبي الصّامد الطيّب/ يا رفيقي، أثور/ وأحمل السّلاح غير خائف/ وأركب الأهوال/ في موكب التحرير، في كتائب النّضال (ن.م،، 72). ويعلن حرّيته بقوله: أقول للقياصرة الصّغار: ما أضعفكم/ قد تحبسون خطوتي/ لكن قلبي هائم في وطني/ يزور أي بقعة يشاء/ يفعل ما يشاء. (ن.م،، 15).



سأظلُّ هنا / أمسكُ جرحي بيدي / وألوحُ بالأخرى / لربيعٍ، يحملُ لبلادي / دفءَ الشَّمسِ  
وباقاتِ الأزهار!<sup>46</sup>

تتميّز أشعار جبران بنبض ثوريّ حافل يلقّه التفاؤل والأمل، ما يدلّ على أنه يبصر الضوء في نهاية النفق المعتم، ويستحضر رؤية متفائلة تبشّر بزوغ فجرٍ جديد. ومن بين جحافل الشهداء وموت الناس جوعاً وأشلاء الجثث وبكاء الفلاحين، تنبت السنابل معلنةً سطوع الأمل في الانتصار. تبرز هذه الصورة الشعرية التفاؤلية في قصيدة كتابة على معسكر الأسرى، وفيها يتكرّر تصريح الشاعر: "إني متفائل" سبع مرات، ويختتمها بقوله:

الغد مرج سنابل / الغد عرس سنابل<sup>47</sup>

ضمن الأسباب العديدة التي تستدعي الفلسطيني البقاء في أرضه وعدم التزوح منها، يسوق الشاعر في قصيدة لا تُسافر سبباً إضافياً قوياً نابغاً من إدراكه بأن البقاء في الوطن هو رمز الحبّ له وعماد الانتصار في معركة البقاء، فيذكر شعبه بأن في السفر والتزوح عن أرض الوطن تحقيق لما يبغيه العدو، لأنه سيترك الأرض خاوية وحيدة نهباً لذئاب الليل، التي تتحين الفرص من أجل الاستيلاء على أرض تركها صاحبها فريسة الاغتصاب دون حماية أو صون. يقول مهيّباً ومناشداً شعبه:

<sup>46</sup> كلمات من القلب، 10. تظهر دعوته للبقاء في أرض الوطن في قصائد عديدة كقصيدة حواكير الطّفولة التي تحمل نبرة متحدية حاسمة، يقول فيها: هذه الحواكير التي نحّمها/ باقية/ وسوف تبقى، بعد أن يندثر الطّغاة/ هذه الدّروب، سوف تبقى أبداً/ وسوف تمضي فوقها/ للعين. في كل مساء، أجمل البنات/ والتوتة الخضراء للشباب، سوف تبقى [...] ونحن باقون هنا/ للأرض، للربيع، للأطفال/ للغد الذي يليق بالإنسان/ للحياة! انظر: كلمات من القلب، 57-58.

<sup>47</sup> رفاق الشَّمس، 15. يحفل هذا الديوان بأشعار تنبض بالتفاؤل والثقة بالشعب. يلخص نايف سليم ديوان رفاق الشَّمس بقوله: "هذا الديوان-على صغره-هو من أضخم ما قرأت من حيث التحدي للظلم، والثقة بالشعب، والتفاؤل بالمستقبل". انظر: سليم، نايف. "رفاق الشمس للشاعر سالم جبران". الجديد، 9، السنة 22، 1975، 13.

قف هنا لا تترك الأرض التي رُبِّيتَ فيها / وزرعتَ اللوزَ والزَّمانَ فيها / قف هنا..لا تترك  
الأرضَ وحيدة / قف هنا..إنَّ ذنابَ الليلِ ترجو أن تسافر / لترى أرضكَ عزلاءَ حزينة/  
بعد أن كان بها رضوان يحمها، ويسقي زرعها / بعد أن كانت مصونة<sup>48</sup> !!  
تدلّ هذه الأبيات على وعي وبقظة إزاء خطط العدو لتفرقة الشعب الفلسطيني. يواصل الشاعر  
دعوته إلى البقاء في أرض الوطن، ويسوق لنا تبريرًا آخر يستحقّ البقاء: إن البقاء ضروريّ لأن  
الحرب تحتاج إلى جنود:

كالسنديان هنا سنبقى / كالصّخور [...] / سأظلُّ فوق ترابك المذبوح يا وطني / مع  
المزمار، أنشد للربيع / وأقول للباكين والمتشائمين: / إن الشَّتاء يموت فابتسموا / ولا  
تتخاذلوا تحت الدَّموع / هاتوا أياديكم، فمعركة البقاء تريدكم / جنديًا...ومعركة  
الرجوع!<sup>49</sup>

من استخدامه للتعبير "هاتوا أياديكم" نستشفّ حتّى الشاعر لأبناء شعبه على الوحدة والوفاق  
من أجل الوطن، وكأنه يؤكّد أن الانتصار لا يكون إلا بالاتّحاد، لذا يهيب بهم أن يتوحدوا  
ويتضافروا من أجل الانتصار في معاركهم مع العدو. ويحثّهم على ضرورة التآخي مهما اشتدّت  
قسوة الظروف، ونبذ التشاؤم ورفض البكاء، لأن الدَّموع لا تنفيذ ولا تعيد الأرض المسلوّبة:  
بكيئُ حتّى سقطت عيناى في شوارع الأرض / دموعًا ودما / سخفي دفعتُ ثمنه /  
عرفتُ / إنّ الدَّمع لا يمنح للضّائع / أرضًا آمنة<sup>50</sup>.  
أيقن الشاعر أن الانتصار في معركته لن تتحقّق بالبكاء والاستسلام للواقع المر، وإنما يكون  
بالعمل المثمر وبإشغال فتيل المقاومة والقتال<sup>51</sup>.

<sup>48</sup> ديوان الوطن المحتلّ، 557-558.

<sup>49</sup> كلمات من القلب، 20-21.

<sup>50</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 34-35.

<sup>51</sup> يتأكّد هذا المعنى في قول الشاعر في قصيدة أغنية المقاومة الشّعبيّة: عندما يصبح الموتُ بالقنبلة/ خطرًا فوق  
رأس ثلاثين مليون "راجل" / تُصبِحُ المرجلةُ / قدرًا/ كلّ فردٍ يصيرُ مقاتلًا. انظر: رفاق الشَّمس، 54. وتُظهر نفس  
القصيدة أن هذه المعاناة التي يعيشها الفلسطيني أشعلت فتيل الثورة والتحدّي من أجل البقاء في وطنه

يتطرق الشاعر إلى عنصر التضحية لدى الفلسطيني متجلياً بأقوى صوره في رسم صورة للمرأة التي تضحي بنفسها ولا تكثر بتفتيت جسدها من أجل الوطن:

سوف أغنيّ للسنين / قصّة طويلةً طويلةً / عن فاطمة / تلك التي كانت تخبئ بين  
نهدية الديناميت / لكي توصله عابرة في خندق الموت- / إلى المقاومة!<sup>52</sup>

## 2.2.2 المحور القومي والأممي في شعر جبران:

عبّر جبران عن تضامنه الإنساني وانتمائه القومي من خلال تصويره للكثير من المناسبات العربية، فنظم شعره حول نضال الجزائر، بور سعيد، الثورة الجزائرية وغيرها<sup>53</sup>. يقول معبراً عن هذا التضامن: "جنبا إلى جنب مع تفاعلنا بهموم جماهيرنا في الوطن ومعاركهم اليومية. كنا نتفاعل مع مأساة كفر قاسم وبطولة بور سعيد، مع رجاء عمّاش الوطنية التي استشهدت أثناء الهبة الوطنية في الأردن عام 1957 ومع ثورة الجزائر وغيرها من ملامح النهضة الوطنيّة العربية"<sup>54</sup>. كما أظهر تضامنه الأممي مع قضايا عالميّة.

---

السليبي: يا دماء أبي وأخي وابن عتيّ/ يا دماء رفاقي البواسل/ أنت - بعد التراب الذي/ يتنزي أمي في السلاسل/  
والبيوت التي دُمّرت/ والألوف التي هُجرت/ والصفاء الذي حرقته على التبل نار القنابل- حافرًا آخر كي نقائل!  
انظر: رفاق الشمس، 55.

<sup>52</sup> رفاق الشمس، 34. وفي إحدى قصائده، يرثي جبران أحد الشهداء ويطلق عليه لقب "صانع المعجزات" ويبلغه بأنه يمجده لكنه لن يزور ضريحه لأنه يخجل من تضحيته العظيمة، في حين هو (سالم) اكتفى بالكلمة: أمجد ذكراك من غير أن/ أزور ضريحك/يا صانع المعجزات/لأنني إذا زرته/سأموت حياء/أنا كل ما صنعته يدي/كلمات (رفاق الشمس، 50)

<sup>53</sup> في كتابه أدب المقاومة، يشير كنفاني إلى أن العلاقة بين أدب المقاومة وبين المعارك العربية خارج الأرض المحتلة هو تلاحم طبيعي. انظر: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948-1966، 32. ويؤكد النابلسي أن ربط قضية الشعب الفلسطيني بقضايا التحرر العربيّة والعالميّة على أساس وحدة هذه القضايا، هو غرض من أغراض الشعر المقاوم. انظر: شاعر النابلسي، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش. (بيروت: المؤسسة العربية، 1987)، 156.

<sup>54</sup> انظر: شاعر الكخال، 85.

احتفاءً منه في أعياد النّصر، يكتب جبران أغنية إلى بور سعيد يمجد فيها أهلها الذين تسلّحوا بالأمل والإصرار وقاتلوا في وجه العدو حتى دحروه:

قبر الأساطيل على شاطئك العنيد / قبر الصليبيّين / المجد للسلّاح، للأيدي / لشعبٍ طيّبٍ / أقسم: لن نلين<sup>55</sup> !

كما يُبرز تضامنه مع فيتنام إذ يقول:

قلبي مع الفيتكونغ في الفيتنام / جنديّ، بجهته مجنّد / وعلى ثرى الدّومنيك قلبي نائر / يا مجرمين..وليس يخمد<sup>56</sup>.

### 2.2.3 الأبعاد الإنسانيّة/الاجتماعيّة في شعره: الاتجاه اليساري الجبراني<sup>57</sup>:

ارتبط شعر جبران - وهو المنتسب إلى الطبقة العاملة فكريًا وتنظيميًا<sup>58</sup> - وكتاباتة النثرية أيضًا،

---

<sup>55</sup> كلمات من القلب، 86. وفي رسالة غرامية بيث جبران براغ حبّه وإعجابه، وينقل لها تضامنه: براغ على أبوابك الجنود/ الزهرُ محمودٌ على سلاحهم/ لشعبك المجيد/ والموت لكلّ خائنٍ حقود/ براغ اطمئني، إنّ في طريق/ جحافل الموتِ إلى ساحاتك الشّقراء/ من أجسادنا سدود، رفاق الشّمس، 28. كما يعبر عن ألمه وهو يرى إخوانه في عمان يُذبحون ويقتلون: معسكر الوحدات أهلي، جبل الحسين أهلي/ وفي القمّة من عمان أهلي/ وفي الرّزقا وفي الرّمثا وفي معان/ أهلي، أنا أعرفهم/ هم قد يموتون ولكن أبدأ لن يذبحوا/ في ذلّة الأغنام/ شعبي الذي يموت من عشرين عامًا/ ثم كالمسيح يستيقظ/ لن يذبح هذا العام/ عمان لن تموت، سوف يغسل النهار/ جبينها الدّامي/ وسوف يرفع الثّوار/ هامتها من بين ليل الموت والدّمار/ وفوق كلّ حارة مهدومة/ سيرفع الثّوار ألف دار. انظر: العرب في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي، 310-311. يظهر الاتجاه القومي في قصائد أخرى نحو: أغنية إلى إسبانيا (63)، عن الهنود الحمر (78) (ديوان كلمات من القلب).

<sup>56</sup> كلمات من القلب، 59.

<sup>57</sup> تنوّه إلى أن هذا السّير في الاتجاه اليساري يتجلّى بوضوح من خلال مقالات الشّاعر، والتي من خلالها يظهر تعاطفه مع الفقراء، ودعمه القوي للعمل، وثورته على المواضع الاجتماعية. من مقالاته التي نُشرت في مجلة الجديد نذكر: "أدب المقاومة صرخة الطّموح الإنساني إلى العدل والحرية" (ع4، 1985، 10-14)؛ "الفنّ والحقيقة" (ع1، 1970، 6-8)؛ "حاجتنا إلى الواقعيّة" (ع12، 1964، 17-19)؛ "هوامش حول النقاش الأدبي في الاتّحاد السوفيتي" (ع9-10، 1969، 10-12). "نصراوي في السّاحة الحمراء" (ع3، 1972، 26-27).

<sup>58</sup> حبيبي، إميل. "تأثير حرب 1967 على الأدب الفلسطيني في إسرائيل"، الجديد، ع1-2، 1976، 54.

ارتباطاً وثيقاً بالأبعاد الاجتماعية، فتجلى ذلك من خلال دعوته إلى تضافر القوى وتوحد العمل، ومن خلال تحسّسه ظروف الطبقة الكادحة، ومناصرتة للعمال والفلاحين ودفاعه الحارّ عن حقوقهم، تحرّيه الإنصاف والعدالة الاجتماعيّة، التناغم مع قضايا التحرير العالمية. ميله لهذه الموضوعات يُبرز اتّجاهاته اليساريّة وميله للاشتراكيّة.

من ذلك تلك القصيدة التي تلخّص مأساة العامل بحكائيّة تبرز المشاق التي تواجهه وهو يبحث عن عمل يضمن له لقمة العيش، يخرج باكراً من قريته البعيدة للبحث، يكرّر سؤاله عن عملٍ، وتكون النتيجة واحدة: بصقه من قبل المعامل والمحال، يحاول خنق بكائه، فيرنّ صوت أمه تطلب منه كتابة رسالة يعلمهم في حال حصوله على عمل، ووعدتها لأخته بأن يحضر لهم البرتقال والثّياب، وبعد محاولات متكرّرة فاشلة يعود أدراجه على بيته ويده خالية من البرتقال والثّياب!<sup>59</sup> واللافت أن الشّاعر يوظّف مفردات من صميم الفكر اليساري ومن معجم الاتّجاه الاشتراكي، مما يؤكّد انتماءه للعقائد الماركسية اللينينية وللمبادئ الاشتراكيّة؛ منها: "الكادحين"<sup>60</sup>، "العمال"<sup>61</sup>، "الرّغيف"<sup>62</sup>، "الشّعب والكفاح"<sup>63</sup>، "العدالة ستشرق"<sup>64</sup>، "رمز الطبقة"<sup>65</sup>، "فقراء الأرض"<sup>66</sup>، "الفلاح"<sup>67</sup>.

<sup>59</sup> انظر: كلمات من القلب، 51-54.

<sup>60</sup> قصائد ليست محددة الإقامة، 52.

<sup>61</sup> ن.م.، 68، 72؛ كلمات من القلب، 64، 76؛ رفاق الشّمس، 69، 71.

<sup>62</sup> ن.م.، 13، 53.

<sup>63</sup> ن.م.، 79.

<sup>64</sup> ن.م.، 7.

<sup>65</sup> ن.م.، 76.

<sup>66</sup> كلمات من القلب، 53.

<sup>67</sup> ن.م.، 7.

تتجلى يسارية الشاعر من خلاله استخدامه للون الأحمر<sup>68</sup> في عدّة قصائد نحو: "الثورة الحمراء"<sup>69</sup>، "أنا أحمر من بلد حمراء"<sup>70</sup>، "علم أحمر"<sup>71</sup>، "دم أحمر"<sup>72</sup>، "الرؤية الحمراء"<sup>73</sup>، "الحرية الحمراء"<sup>74</sup>. ويضمّن لفظة "رفيق" أو "رفاق" وهي من روح الفكر اليساري- في مواقع كثيرة أبرزها في عنوان ديوانه رفاق الشمس<sup>75</sup>.

### 2.3 جبران ومراة الإقامة الجبرية: السّجن في شعره

ذاق جبران مرارة السّجن وتجرّع طعم القيود والسّلاسل. وكما يبدو، فإن الجدران التي أطبقت عليه وأسرت جسده، ساعدت على إطلاق روحه الشاعرة وأطلقت عنانها ليعبر عن واقعه في السّجن، بدءاً بالتعبير النّاطق عن الواقع الذي ينضح مأساوية، وانتهاءً بإشعال فتيل المقاومة من خلال الكلمة الشعريّة<sup>76</sup>.

يمكننا أن نقسم عالم جبران الأسري إلى قسمين: الأول حين أُسِرَ في سجن خاصّ، هو بيته حيث فُرِضت عليه الإقامة الجبرية فمُنِعَ لمُدّة سنتين من مغادرة المدينة في النهار ومن مغادرة

---

<sup>68</sup> يرمز اللون الأحمر إلى الثورة البلشيفية حيث تحوّل إلى رمز عالمي، رمز "الثورة عند الشيوعيين". انظر: رقية زيدان، أثر الفكر اليساري في الشعر الفلسطيني (كفرقرع: دار الهدى، 2009)، 239.

<sup>69</sup> رفاق الشمس، 79؛ كلمات من القلب، 26.

<sup>70</sup> كلمات من القلب، 56.

<sup>71</sup> ن.م، 95.

<sup>72</sup> ن.م، 95.

<sup>73</sup> ن.م، 76.

<sup>74</sup> ن.م، 73.

<sup>75</sup> انظر مثلاً: رفاق الشمس، 45.26؛ كلمات من القلب، 8، 39.25، 72.53، 77، 96؛ قصائد ليست محدّدة الإقامة، 49.

<sup>76</sup> شعر السجن يعد ظاهرة بارزة في الشعر الفلسطيني، تخلّقت من رحم المقاومة. عُرف باسم "أدب السّجون والمعتقلات"، عمل على تأصيلها عدد من الشعراء الفلسطينيين الذين تمّ زجّهم في أتون "باستيلات" الاحتلال الإسرائيلي وسجونه الخانقة. انظر: المتوكل طه، مقدّمات حول الشعر الفلسطيني الحديث والثقافة الوطنية (رام الله: دار البيرق العربي، 2004)، 73.

بيته في الليل، لا لشيء إلا لأنه رفض العفو مقابل الاعتراف بتهمة "التجسس" المنسوبة إليه! وتماهيًا مع هذه التجربة المريرة التي عاشها، أخرج إلى النور ديوانًا شعريًا عام 1970 بعنوان: قصائد ليست مُحدّدة الإقامة. تبرز تجربته في القصيدة التي يفتح بها مجموعته، حين يعلن حنينه إلى قريته:

أنا بلا كروم زيتونك / يا قريتي القريبة البعيدة / زهر بلا عطر بمزهريه [...] / وغاصب  
التراب والأشجار والأزهار والهواء / لا يمنحني التصريح / وخطوتي سجينه في البيت / لا  
تحسن أن تطير، كالقصيدة<sup>77</sup>.

يشعر القارئ بنبرة اليأس تطغى على سطور القصيدة. ونجده يخاطب أمّه طالبًا منها ألا تنتظر عودته:

أمّاه يا أمّاه [...] / لا تقفي، بعد، على الشبّاك في انتظاري / جلاله السلطان لا يمنحني  
التصريح / لا تنتظريني، واسمعي أخباري<sup>78</sup>.

منعته الإقامة الجبرية كما يتبدّى من أبيات القصيدة من التواصل مع أمّه وأهله وقريته، فبترته عن الآخرين نفسيًا وجسديًا. ولكنه سرعان ما ينفذ عن نفسه ملامح اليأس ويعلن أن الإقامة الجبرية لم تعد مرهقة ولا معيقة:

لم تعد الإقامة الجبرية / مرهقة، لديّ ألف شغلة أنجزها / من قبل أن أنام<sup>79</sup>.

تجدد الإشارة إلى أن الإقامة الجبرية لجبران لم تحصر أشعاره في إطار الفردانية، بل نجح في الخروج من إطار الذاتية إلى إطار المجموعة، فقصائده وإن كانت ذاتية في مرجعيتها ونقطة انطلاقها، فإنها تعبّر عمّا يعيشه الشعب الفلسطيني بأسره، الذي عاش هذه الإقامة الجبرية - ولو مجازًا- وذاق مرارتها. وفي مقابلة معه، أكّد جبران هذا الأمر حين أشار إلى أن ديوان قصائد ليست محدّدة الإقامة يستلم مواضيعه وصوره من حرب حزيران وما بعدها، من المأساة

<sup>77</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 5-6

<sup>78</sup> ن.م، 11

<sup>79</sup> ن.م، 12-13

المتفجّرة يوميًا للشعب العربي الفلسطيني. في الديوان رفض للهزيمة، رفض نابع من الاقتناع العميق بقدرة الشعوب العربية، ومعها الشعب العربي الفلسطيني على تجاوز الهزيمة. في الديوان إدانة السياسة العنصريّة للحكومة تجاه الجماهير العربية الباقية في الوطن، من زاوية أوامر الإقامة الجبريّة وتحديد الإقامة. ويؤكد أنه لم يكن بطلاً فردياً مأساوياً في الديوان. بل كان واحداً من أفراد شعب بطل، معذب، مناضل. وبذا فإن أشعار الديوان هي انعكاس لتجربة شعبيّة وليست تجربة شخصيّة فقط<sup>80</sup>.

أمّا القسم الثاني فنقصد به الفترة التي أُسِرَ فيها وسُجِنَ بشكل فعلي، مثله مثل العشرات بل المئات في تلك الفترة، كمظهر من مظاهر التعذيب التي فرضها العدو. ووسط ظلمة السّجن يصف الشاعر أوضاع السّجناء، وتعلو من داخل جدران صرخاته في وجه سجانها الظالم. في قصيدة يهديها إلى "الوطنيين الفلسطينيين المعتقلين إدارياً، الذين أعرّفهم، والذين لا أعرّفهم"<sup>81</sup> يتماهى السّجن مع القبر حين يصف المكان الذي سُجِنَ فيه :

متر بمتروكلّ ما عندي من الدنيا / قميصي صار رثاً، أكلهم يُقرِفُ، والدخان / لم يدخل  
الزّنزانة الصّفراء من زمان / ومعدتي أوجاعها تقتلني في كلّ يوم / ثمّ لا تلبث أن تعيدني  
إنسان<sup>82</sup>.

الوصف الذي منحه لمكان أسره في البيت الأول يذكّرنا بالتأبوت، فتلتقي صورة الزّنزانة مع التأبوت في ضيق المساحة. يشعر القارئ مع هذا المتن بأن السّجن هنا ليتجاوز كونه أسراً لجسد الشاعر، ويتعدّاه إلى أسر روحه، كيانه، وجدانه، ويصل إلى حدّ وأد إحساسه بالحياة وتوريثه أوجاعاً نفسيّة وجسديّة. بعد مسحة من الألم والوجع التي تعتري كلمات الشاعر، ينهّنا الشاعر إلى أن هذا الحزن ليس ندماً أو تعباً من الأسر، بل هو نابع من تغيبه عن ساحة المعركة:

<sup>80</sup> انظر: الجديد. الشاعر سالم جبران يتحدث إلى مندوب الجديد. ع 5-4، 1972، 41.

<sup>81</sup> رفاق الشّمس، 20.

<sup>82</sup> ن.م، 20.



باسمك يا شعبي أغني، إذا / لمحت في أغنيتي / شيئاً من الأحران / فليس ذاك أني  
تعبتُ أو ندمتُ، بل يجرحني / تغيبي عن ساحة العراك، من زمان<sup>83</sup>.

لم يقتصر الأمر على ضيق في مساحة السجن، بل تعداه إلى ظروف قاسية تحيط به، فالرطوبة  
والعفن ينفثان أنفاسهما ويحيطان به، والظلمة تغزو المكان، والبطانيات المقدمة لا تفي  
بالغرض مع البرد القاسي الذي ينخر في الجسد كالإبر، فتشكّل كلّها لوحة قاتمة تضيق الخناق  
على شاعرنا، وتضفي أبعاداً جديدة لمعاناته: يصف وضعه في أغنية فتح حساب:

هذه أول ليلة / في الخارج، صوتُ مطر / ألمُح في العتمة، من فتحة شُبّاي / شَبَحَ  
النخلة / البردُ إبرُ!! / البطانيات: بصاق وعفونة / والصمتُ: لعنت رنينه<sup>84</sup>.

العتمة تسيطر على المكان، لذا لم تبد النخلة من فتحة النافذة بل بدا شبحها، إنها عتمة  
وظلمة الزنزانة التي تلفّ المكان وتلازم حياة الأسير. العتمة تطوّق المكان يؤازرها في ذلك صمت  
رهيب، إنه صمت من نوع خاص، صمت له رنين، ربما يقصد به صمت الحياة وانعدامها.  
الصمت سكون، والرنين حركة وضوضاء، ومن خلال هذه الثنائيات الضدية تتضح ملامح اللوحة  
القاسية التي يعيشها الشاعر، ففي مكان جامد ساكن لا حركة فيه ولا أنفاس، بات الصمت  
جرساً يقرع رنينه في داخل الشاعر. وسط هذه الظروف القاسية من صمت، برودة، عفونة؛  
يعاني الشاعر من الوحدة التي تبدو كالبحري يغرقه بأواجه العميقة:

وأنا وحدي، في السجن سجين! وحدي، وحدي / ما أعمق أمواج الوحدة / وحدي في  
الليل أفكّر / أهيمس، أنشدُ، أتذكّر<sup>85</sup>.

ووسط هذه الوحدة، وهذا الصمت القاسي، خرجت صرخة الشاعر متحدية ثائرة:  
ما أسخفكم يا أعداء الدرب!..... / هذي أول ليلة / هذي ليست آخر ليلة!<sup>86</sup>

<sup>83</sup> ن.م.، 21-22.

<sup>84</sup> ديوان الوطن المحتل، 536.

<sup>85</sup> ديوان الوطن المحتل، 537.

<sup>86</sup> ن.م.، 537.

يرى محمد حور أن هذا الرفض إنما من باب استخفاف الشاعر بأعدائه، وما النقاط المتتالية إلا فراغاً ليملاً المتلقي ما شاء له من تأويل وإيحاء كأنما يقول: ما أسخفكم باعتقالي، لأن هذا سيزيدني قوة في الوقت الذي تظنون أنكم تضعفوني<sup>87</sup>.

يعاني الشاعر في سجنه شتى ألوان الحرمان الذي فرضه عليه سجنه، حرمانه الأكل، الحرمان من الدخان، والأصعب حرمانه من أولاده. يعبر عن لوعته:

عيون أطفالي عصافير تجيء دائماً / ترفُّ فوق السَّجنِ ثمَّ ترتمي / راجعة.. فهكذا أوامر  
السَّجان!<sup>88</sup>

صورة قاتمة سوداء، خيوطها نُسجت من صمت مطبق، عفونة، برد قارس كالإبر، ظلام دامس، كل هذه الظروف بطبيعتها تؤدِّي إلى جوِّ نفسي حافل بالقلق والأرق واليأس والكآبة. ولكن، هذا لم يحدث للشاعر، فرغم كل هذه الظروف المحبطة إلا أنه استطاع أن يتجاوز حالة اليأس والاكتئاب لينتقل إلى حالة من الأمل والإيمان بحتمية الانتصار. فوظف الكلمة الشعرية والطاقة الإبداعية الكتابية في سبيل تطويق حالات المعاناة والخروج من الفردانية إلى الجماعية من خلال بثِّ روح الأمل. انتماؤه المخلص لوطنه وأرضه كان بمثابة الضوء الذي بدد عتمة السجن وظلمته؛ يقول:

هل تذكرني يا حمدي، يا علم الدين / كُنَّا في السجن، نقيض يقين / نندش في ثقة لا  
تقهزُ / للثورة، للجيش الأحمر / نرسم لوحاتٍ عن عمال النَّفط / وعن مأساة  
الفلاحين<sup>89</sup>

إنه لا يستسلم للواقع، للأسر، بل يعلن التحدي:

إن سجنوا لي خطوتي [...] / فلن تشلَّ خطوتي / وسوف يعلو الصوت<sup>90</sup>

---

<sup>87</sup> محمد حور، القبض على الجمرة: تجربة السجن في الشعر المعاصر (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، 2004)، 349.

<sup>88</sup> رفاق الشَّمس، 21.

<sup>89</sup> كلمات من القلب، 70.

<sup>90</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 19.

لم يكتف بتحدّيه، بل يعلن وعده:

لكن إذا دار الزمان، إنه دوار / سيسقط الجدار / ويثأر الأحرار<sup>91</sup>

مما سبق، يتّضح أن السّجن أصبح رديفًا عند جبران لمعاني الثورة والانطلاق والتحدّي، وبذا تنتفي الدلالة المعجميّة الأصليّة للسّجن، ويأخذ دلالات جديدة تحمل معنى الثورة والأمل والتحرّر. تتجلى هذه الصورة الثورية بأقوى صورها في حواريّة يخلقها الشاعر بينه وبين سجّانه، تبرز صموده صمود وقوّته، ففي صورة شعريّة استعاريّة يصوّر موقفه النابض رفعة وعزّة وشموحًا في الوقت الذي تكبّل يديه بالأغلال:

سلسلة الحديد في يديّ / وجبتي تنكّي الشّمس عليها / قبل أن تسقط للمغيّب<sup>92</sup>

وبعد مجموعة من التساؤلات الهازئة التي تنهال عليه من شرطيّ العدو: "هل جئت للمركز من جديد؟ أما تزال تكره اليهود؟ منذ متى أنت هنا؟ محكمة؟ قصّة دير حنا: يكون جواب الشاعر حاسمًا، جريئًا، متحدّيًا:

يا أصفر العينين والضمير، يا حقود! / سأحمل القيود / سأسمع السّجن أغانيّ التي  
أنشدها / للناس، في الحارات والدروب !! / القيد في يديّ: عار يحرق الضّمير / فعلاً..  
ولكن ليس لي / وإنما لحكمك الحقير / يا بوليسه الصّغير!!<sup>93</sup>

تحوّلت القيود من عار للسّجين إلى عار يكبّل السّجان، وباتت مصدر اعتزاز وفخر للشاعر.

### 3. الخصائص الفنيّة لشعر جبران: أساليب منتزعة من واقع الألم:

لعلّ أكثر ما يلفت النّظر في الشّكل الفنّي لقصائد جبران هو قصرها، وحين سُئل جبران عن هذه الخاصيّة التي تميّز أشعاره أجاب: "فعلاً أكثر قصائدي قصيرة، ولا أجدني بأيّ حال بحاجة إلى التبرير [...]، أنا حين أكتب لا أقرّر سلفًا ما هو حجم القصيدة وعلى أي وزن. أنا أعيش الواقع وأجمع منه الصّور وحرارات التّجارب الشّخصيّة والشّعبيّة، أتفاعل مع ما أجمعه،

<sup>91</sup> كلمات من القلب، 76.

<sup>92</sup> ديوان الوطن المحتلّ، 537.

<sup>93</sup> ديوان الوطن المحتلّ، 538.

أحاول أن أهضمه فكرياً وعاطفياً. [...] أنا ألتمز بشيء واحد: أن يكون ما أكتبه صادقاً ليس مع نفسي فقط، بل مع الحياة [...] يهمني أن يكون في شعري شيء جديد، كشف جديد، هذا أحرص عليه. أما الطول والقصر فلا يعنيني؛ لأنني لا أبيع قماشاً<sup>94</sup>!". واللافت أن هذا القصر للقصائد لم يُفقد قيمتها، بل جاءت مكثفة مركزة، كما نجد في قصيدته حب:

كما تحبّ الأم / طفلهما المشوّها / أحبّها / حبيبتي بلادي<sup>95</sup>!

ففي بضع كلمات يختزل ويلخص مشاعر جارفة إزاء فلسطين.

يتميّز شعر جبران بالصدق الفنيّ متمثلاً في بساطته وانسيابيته وتعبيره عن تجارب واقعية معيشة، نضح بحماسة ملتهبة، وشفافية صادقة، تعبّر كلماته عن وجعه وألمه، فيشعر القارئ معه أنه يكافح ويناضل بالكلمة، كونه عاش التجربة بكل تفاصيلها منحه القدرة على صدق التعبير وشفافية المعنى. هذه التلقائية الانسيابية مردها إلى قوّة التفاعل بين الذات الشاعرة وبين الواقع المرير المعيش.

يتحرّك جبران بين الوصف الرومانسي وبين التقريرية التسجيلي الواقعي، ويلاحظ أن التّغمة الخطابية التي بدأت بتأثير المهرجانات الشعرية حيث أملت طبيعة شعرية خاصّة وضرورة تعبيرية تتسم بالخطابية، لم تتلاش من أشعار جبران فرافقتة في معظم دواوينه، تماشياً، كما يبدو، مع المضمون الثوري الذي يمتدّ على الدواوين الثلاثة. يقول مخاطباً شعبه:

هزّي، من الأعماق، يا عاصفة الهزيمة / عالمنا الشّائخ / فليدمّر الإعمار كلّ التحف

القديمه / ناساً وأفكاراً / ليحرق لهب الثّورة كلّ أراضينا / كي لا تحاك، من جديد،

فوقها مهزلة / كي لا تُعاد، من جديد، فوقها جريمة<sup>96</sup>

تموج القصيدة بمشاعر ملتهبة من الغضب والتحدّي، وكلها مشاعر تقتضي بطبيعتها لغة خطابية ومباشرة فنيّة. يضاف إلى ذلك اختياره لهاء السّكت رويّاً لأبياته، منحت قصيدته

<sup>94</sup> الجديد. الشاعر سالم جبران يتحدّث إلى مندوب الجديد. ع (4-5)، 1972، 41.

<sup>95</sup> كلمات من القلب، 102.

<sup>96</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 36.

إيقاعًا خطابيًا ثوريًا، وساعدت على كشف ما يعتمل في صدره من ثورة. ونحن، في حكمنا على آسام قصائد جبران بالطابع الخطابي المباشر، نخالف ما ذهب هو إليه من أن أكثر شعره يميل على تقديم اللوحة أو الصورة، ولا يميل إلى المخاطبة المباشرة<sup>97</sup>. ولعلّ في المثال الشعري الذي سقناه ما يدعم رأينا<sup>98</sup>.

هذا الطابع الخطابي يفرض على الشاعر أحيانًا الاتكاء على أسلوب التكرار، من أجل ترسيخ المعنى وتجديره في نفس القارئ، بالإضافة إلى أن التكرار يتجاوب مع طبيعة شعر المقاومة الذي يعبر في مضمونه عن ألم ومعاناة، مما يستلزم استخدام التكرار كآلية صوتية ومعنوية تساعد على نقل هذا الألم. ولا يقتصر الأمر عند الشاعر على تكرار في الألفاظ والتعابير<sup>99</sup>، وإنما يقع في

<sup>97</sup> الجديد. الشاعر سالم جبران يتحدث إلى مندوب الجديد. ع (4-5)، 1972، 41.

<sup>98</sup> تكرر الأسلوب الخطابي ذو النبوة المباشرة لدى العديد من الشعراء الفلسطينيين حتى يمكن اعتباره من سمات الشعر الفلسطيني عامة. ويرى جمال قعوار أن التقريرية التي عمت الشعر بأسره في تلك الفترة، هي أمر طبيعي لشعر شقّ طريقه من خلال المهرجانات الشعرية مستهدفًا الإبلاغ المباشر، فلم يكن أمامه مفرّ من الخطابية والإيصال السريع. انظر: جمال قعوار، "نظرة في الشعر العربي المحلي". مجلة الشرق 1-2، مج. 3، (حزيران-تموز، 1972)، 29. كما تُعزى هذه الظاهرة برأي مطاع صفدي إلى أن فرسان الشعر المقاوم يحتاجون إلى المباشرة والابتعاد عن الرموز الشمولية. إنهم مضطرون غالبًا إلى تسمية الأشياء بأسمائها، وإذا عمدوا إلى الرموز، فليس لضرورة فنية دائمًا. انظر: صفدي، مطاع. "كيف يتأسس الوجدان المقاوم". سميح القاسم في دائرة النقد- الأعمال الكاملة. كفرقرع: دار الهدى، ج. 7، د.ت. 184-185. ونبّه هنا إلى أن هذه الخطابة لدى جبران لم تعدم عنده استخدام الرموز أحيانًا وتوظيفها، كاستخدامه للفظي "الحية" كلمات من القلب، (16 و"الجزائر" (ن.م.، 10، 16) و"الجلاد" (ن.م.، 68، 77، 83؛ قصائد ليست محدّدة الإقامة، 58، 64، 66) رمزًا للعدو؛ ولفظة "القطيع" (رفاق، 23) رمزًا للشعب الفلسطيني. ولكنها تبقى رموزًا بسيطة تفتح حوارًا مباشرًا تلقائيًا مع القارئ. بعيدة عن إطار الرموز المكثفة التي تتطلب جهدًا من القارئ ليفهمها، رموزًا تخدم الانفعالية المباشرة مع القصيدة.

<sup>99</sup> من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: التعبير "أراك وأبكي" تكرر في نفس القصيدة ثلاث مرات. قصائد ليست محدّدة الإقامة. 46؛ تكرر لفظة "عرفت" خمس مرات (ن.م.، 60). كلمة "أراه" ترد 14 مرة في: ن.م.، 70. وفي قصيدة جيفارا يكرّر الفعل "ينمو" ست مرات (ن.م.، 42)، تعبير "ظليّ معي" ورد في أكثر من قصيدة (ن.م.، 26، 27)، وفي قصيدة أخرى تكرر استخدامه للفعل "يمكنكم" أربع مرات (ن.م.، 9).

فحّ تكرار الفكرة والمضمون في كثير من القصائد، فنظرة إحصائية لدواوين الشاعر تفضي إلى أنه قد خضع لنطاق شعري مضموني رئيسي هو المقاومة، هذا الخضوع أوقعه في فحّ التكرار، لذا نجد المضامين المكررة والموضوعات تعود على نفسها في أكثر من قصيدة. وقد يبرر هذا بأن الشاعر لم يشأ أن يكون خارجًا عن القطيع، فانغمس في قضايا وطنه مثله مثل شعراء المقاومة.

يبرز الأسلوب القصصي في بعض أشعار جبران، فتتوافر فيها عناصر القصة من شخصيات، حوار، حبكة، زمان ومكان، مع الحفاظ على البنية الأساسية للنص الشعري. يظهر هذا الأسلوب في الكثير من القصائد مثل: 1948 (مقاطع)، المعركة، الحب العظيم، في السينما، يوم وليلة في المدينة<sup>100</sup>، وتستهلّ الأخيرة أبياتها بالتعبير القصصي "في ذات يوم"، وتزخر بالتساؤلات والحوار والشخصيات<sup>101</sup>.

تأرجحت أشعار جبران بين القصيدة الكلاسيكية والحديثة، وجمع بين الموروث والحرّ في موسيقى قصائده، ولكن -تأثرًا بالسيّاب كما صرّح جبران<sup>102</sup> - نجد الغلبة الواضحة في قصائده لصالح نظام الشعر الحديث والابتعاد عن نسق القصيدة التقليدية، معتمدًا بشكل كبير على الرجز بحرًا لقصائده.

ملاحظة أخرى تستوقفنا عند النّظر في الشّكل الفنّي لقصائد جبران هي اقتراب لغة شعره من حديث النّاس اليومي، فجاءت بسيطة، سلسلة غير متكلّفة أو مفتعلة، ألفاظه وتراكيبه منتقاة بعفويّة وانسيابيّة<sup>103</sup>. من ذلك قوله في قصيدة بلا أوسمة:

---

<sup>100</sup> كلمات من القلب، 5، 14، 25، 48، 51.

<sup>101</sup> كلمات ليست محدّدة الإقامة، 51.

<sup>102</sup> انظر ص 2 في هذه الدراسة.

<sup>103</sup> يبدو أن جبران يؤمن بما ذهب إليه الشاعر محمود درويش في أن: "قصائدنا بلا لون، بلا طعم، بلا صوت/ إذا لم تحمل المصباح من بيتٍ إلى بيت/ وإن لم يفهم البُسطا معانيها/ فأولى أن نُدرّجها ونخلد نحن للصمت. انظر: ديوان الوطن المحتلّ، 136.

يتعلّم الشعب المعذّب كيف يدفع للبطولة / بنتًا لحدّ الآن لم تحلم بغير العرس / لم تتقن سوى لمّ الجديلة<sup>104</sup>.

يشعرُ القارئ من خلال هذا المتن بمدى العفوية والشفافية التي تطفئ على التعبير، وهذه الخاصية تتيحُ لكلمات الشاعر القدرة على التّفاد إلى القارئ وتجعل وقع تأثيرها أكثر قوة. ويبدو واضحًا من الأبيات السابقة- أن الشاعر تحرّر من قيود اللغة التقليدية ذات المعجم الفصيح، وأثر البقاء في حدود اللغة المباشرة المبسطة. وقد نعزو هذه السّمة لدى جبران، والتي تنسحب على غالبية قصائده، إلى أنه يعبر عن هموم الفلسطيني ومعاناته في تفاصيل حياته اليومية، وهذا دفعه إلى أن يُخضع لغته الشعريّة إلى اللغة الجماعيّة للشعب، ويستلهم مفرداته من فئات الواقع اليومي الذي يعيشه الفلسطيني<sup>105</sup>.

يعمد جبران بشكل لافت إلى الاستقاء من اللغة المحكية، فنجد الكثير من المفردات والتعابير المحكية مثل:

"ألف شغلة"<sup>106</sup>، "خلّوني"<sup>107</sup>، "تعلّم التياسة"<sup>108</sup>، "راجل"<sup>109</sup>، "المرجّله"<sup>110</sup>، "تخّي"<sup>111</sup>، "اترك الصبّة"<sup>112</sup>، "بياع الخُضرة"<sup>113</sup>، "ما حدّد ما نَجَرَ"<sup>114</sup>، "نباطح الرّيح"<sup>115</sup>، "على الميس"<sup>116</sup>، "جنب

<sup>104</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة. 65. تظهر مثل هذه اللغة البسيطة المستقاة من المحكية في قصائد أخرى، من ذلك على سبيل المثال: كانت ضحكته صافية/ ظاهرة كالفله/ بعد ثماني ساعات الشّغل بمصنع "نعمان"/ كان يرجع للبيت ليأكل ويفسّل/ ويلعب إيتان/فوق حصان خشبي/ساعات كان يلعب إيتان.انظر: ن.م.، 74-75.

<sup>105</sup> يزخر المعجم الشعري لجبران بكلمات مستوحاة من عالم المعاناة اليومية مع الاحتلال، لذا تتكرّر كلمات فيها قسوة وألم نحو: وجع، ألم، هموم الحياة، التّار، الجنود، الدم، الرصاص، قنابل، الجلاذ، الجزار، الدّموع، المنفى، الغربة، الزنزانة، السجن، جنازة، مجزرة، اللاجئ، أسوار الحدود، أشواك، مأساة..

<sup>106</sup> قصائد ليست محدّدة الإقامة، 12.

<sup>107</sup> ن.م.، 5.

<sup>108</sup> ن.م.، 31.

<sup>109</sup> رفاق الشّمس، 54.

<sup>110</sup> ن.م.، 54.

العين"<sup>117</sup>، "دوّرت كلّ شاع يّممت كلّ حاره"<sup>118</sup>. كما يستقي أحياناً من التراث الشّعبي، كاستخدامه لتعبير "الميجنا والعتابا" في أكثر من موقع<sup>119</sup>.

استقى جبران أيضاً مفرداته من عالم العقيدة المسيحية لِيُسْقِطَها على الواقع الفلسطيني، فجعل من المسيح المصلوب الذي يرمز للتضحية في سبيل البشريّة، المعادل الموضوعي لإبراز الفلسطيني الذي يضحيّ بنفسه من أجل الوطن. يقول في إحدى قصائده:

وأقول بثقة نبيّ مصلوب يعلن آخر كلمة: إني متفائل<sup>120</sup>

إجمال:

استعرضت هذه الدراسة المحاور الرئيسيّة في شعر سالم جبران مضموناً وأسلوباً، فرصدت دائرة المضامين التي تحرك شعره عليها، بدءاً من الرومانسية الباحثة عن الذات، انتقالاً إلى المحور الوطني ركيزة أساسية ومادّة رئيسية في شعره، من خلالها أبرز حبه لوطنه ودعوته إلى التشبّث بالأرض والصّمود في مواجهة المحتل، ثمّ أظهرت المحور القومي والأممي والذي من

<sup>111</sup> ن.م.، 58.

<sup>112</sup> كلمات من القلب، 7.

<sup>113</sup> ن.م.، 22.

<sup>114</sup> ن.م.، 23.

<sup>115</sup> ن.م.، 38.

<sup>116</sup> ن.م.، 38، ويقصد المعلمة.

<sup>117</sup> ن.م.، 39.

<sup>118</sup> ن.م.، 51.

<sup>119</sup> انظر مثلاً: رفاق الشّمس، 86: كلمات من القلب، 38.

<sup>120</sup> رفاق الشّمس، 9. تردّ لفظة المسيح في قصائد أخرى، انظر مثلاً: "كأسماك المسح" (66 قصائد)، بل وظهر المسيح في عنوان قصيدة المسيح قام (قصائد 56). وننوّه إلى أن التراث المسيحي بما يحتويه من معاني الولادة الصعبة والصلب والفداء والتضحية، يعدّ من الإيحاءات والرموز الشعرية التي تتناغم مع هموم الفلسطيني وتضحياته، فكلاهما يصل ذروة العطاء بالاستشهاد من أجل القضية والخلاص للآخرين. انظر: نزيه أبو نضال، *جدل الشّعور والثّورة* (بيروت: المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 1979)، 175.



خلاله تناول الشاعر قضايا عربيّة تبرز انتماءه إلى الأمة العربيّة، والمحور الاجتماعي الإنساني وفيه طرح قضايا العمّال والطبقات الكادحة.

ضمن الجانب الأسلوبي، توصّلت الدراسة إلى توظيف الشاعر لمجموعة من العناصر التي تُكسب قصائده إيقاعاً خطابياً ثورياً كاتكائه على خاصيّة التكرار وإصراره على استخدام النّغمة الخطابية. كشفت الدراسة توظيف الشاعر للغة المحكية بصورة بارزة، إلى جانب تواتر المعجم الماركسي في أشعاره، ولجونه إلى الأسلوب القصصي في كثير من قصائده.

وأخيراً، هذا هو شعر سالم جبران، شعر نبع ممّن تشبّع من هواء فلسطين وصلب عوده بحبّ ترابه فقررّ انتفاضة الكلمة والقصيدة، شعرٌ تخلّق من رحم المقاومة، والتحم مع القضية الفلسطينية، ولكنّه لم يقف عندها أو يعلّقُ بها، بل جعل منها ومن انتكاساتها وقوداً لضخّ الدّماء في الشّعب الفلسطيني وحثّم على الصّمود والتمسّك بالأرض.

## المصادر المراجع

- أبو حاقه، أحمد. الالتزام في الشّعر العربي. بيروت: دار العلم للملايين، 1979.
- أبو شاور، سعدي. تطوّر الاتجاه الوطني في الشعر الفلسطيني المعاصر. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 2003.
- أبو نضال، نزيه. جدل الشّعر والثّورة. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 1979.
- بولس، حبيب. مقالات في الأدب العربي الفلسطيني الحديث: الرحلة الأولى. الناصرة: المطبعة الشعبيّة، 1986.
- جيران، سالم. كلمات من القلب. عكا: مطبعة دار القبس العربي، د.ت.
- جيران، سالم. قصائد ليست محدّدة الإقامة. بيروت: منشورات دار الآداب، 1970.
- جيران، سالم. رفاق الشّمس. النّصرة: دار الحرّيّة للطباعة والنّشر، 1975.
- الجديد. الشاعر سالم جبران يتحدث إلى مندوب الجديد. ع (4-5)، 1972، 44-40.
- حبيبي، إميل. "تأثير حرب 1967 على الأدب الفلسطيني في إسرائيل"، الجديد، ع1-2، 1976، 65-51.
- الحلو، وضاح. سالم جبران في مجموعته الشعريّة "قصائد ليست محدّدة الإقامة". الجديد، ع (10)، 1972، 63.
- حور، محمد. القبض على الجمر: تجربة السجن في الشعر المعاصر. بيروت: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، 2004.
- الخطيب، يوسف. ديوان الوطن المحتلّ. دمشق: دار فلسطين للتأليف والترجمة والنشر، 1968.
- زيدان، رقيّة. أثر الفكر اليساري في الشّعر الفلسطيني. كفرقرع: دار الهدى، 2009.
- سليم، نايف. "رفاق الشمس للشاعر سالم جبران". الجديد. ع 9، السنة 22، 1975، 15-12.
- سنير، رؤوبين. ركعتان في العشق: دراسة في شعر عبد الوهاب البياتي. بيروت: دار السّاق، 2002.

- السّوافيري، كامل. الاتجاهات الفنيّة في الشّعْر الفلسطيني. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصريّة، 1973.
- صدوق، راضي. شعراء فلسطين في القرن العشرين. بيروت: المؤسّسة العربيّة، 2000.
- صفدي، مطاع. "كيف يتأسّس الوجدان المقاوم"، سميح القاسم في دائرة النّقْد- الأعمال الكاملة. كفرقرع: دار الهدى، ج.7، دت.
- طه، المتوكل. مقدّمات حول الشّعْر الفلسطيني الحديث والثّقافة الوطنيّة. رام الله: دار البيرق العربي، 2004.
- قعوار، جمال. "نظرة في الشّعْر العربي المحلّي. مجلّة الشّرق. ع1-2، حزيران-تموز، مجلد 3، 1972، ص 21-30.
- قهوجي، حبيب. العرب في ظلّ الاحتلال الإسرائيلي. بيروت: منظمّة التحرير الفلسطينيّة، مركز الأبحاث، 1972.
- كامل، رياض. حوارات أدبيّة. وزارة المعارف والثّقافة: دائرة الثّقافة العربيّة، 1994.
- الكخّال، شاكر. لقاء مع الشّاعر سالم جبران. الجديد (عن صحيفة طريق الشعب العراقيّة)، ع (10-11)، 1975، 84-87.
- كنفاني، غسان. أدب المقاومة في فلسطين المحتلّة 1948-1966. بيروت: منشورات دار الآداب، 1966.
- مواسي، فاروق. سالم جبران يطلق الكلمة. الجديد، ع (10-11)، 1975، ص 67-71.
- مواسي، فاروق. مرايا في النّقْد-دراسات في الأدب الفلسطيني. "شاهد على حصاد الجماجم-شعر كفرقاسم". بيت بيرل: مركز دراسات الأدب العربي، 2000، 35-71.
- النايلسي، شاكر. مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش. بيروت: المؤسّسة العربيّة، 1987، 156.
- يحيى، أحلام. صبّ الغمام. سوريا: دار نينوي، 2007.
- Jayyusi, Salma Khadra. *Trends and movements in modern Arabic poetry*. Leiden: E. J. Brill, 1977.

Cachia, Pierre. *An overview of modern Arabic literature*. Edinburgh University Press, 1990.